

المبحث الثاني : مفهوم الغزل وأنواعه

أ. مفهوم الغزل

يعد الغزل فنا من فنون الشعر القديمة التي عرفها الشعراء منذ أقدم عصور الأدب العربي منذ العصر الجاهلي. و كان القدماء يطلقون عليه اسم التشبيب أو النسيب أو الغزل وهي كلها ألفاظ مترادفة، و بعض النقاد حاولوا أن يفرقوا بينها، واستمر فن الغزل في عصر صدر الإسلام و في العصر الأموي إلا أن ظروف الحياة الاجتماعية ساعدت على وجود نوعين من أنواع الغزل.

ب. أنواع الغزل

١. النوع الأول : الغزل اللاهى الحمى (الصريح) :

ظهر هذا النوع من الغزل في بيئة الحجاز. وساعدت عوامل كثيرة على ازدهاره في هذا الاقليم منها الثراء الواسع الذى عم مدن الحجاز نتيجة للفتوح الإسلامية فقد عادت الجيوش المحاربة ومعها الأسلاب والغنائم والذهب والفضة والنقود والملابس والحلى والأواني والتحف، وقد صبت كثير من هذه الأموال في مدن الحجاز الرئيسية مكة والمدينة والطائف.

يضاف إلى هذا المصدر الكبير مصدر ثان وهو ماكانت تتمتع به بعض الأسر

الغنية من ثراء كبير نتيجة اشتغالها بالتجارة منذ العصر الجاهلي، وهناك المصدر الدائم الذى يفيض بالخير على سكان الحجاز كل عام وهو الحج.

لقد أفاء الله على مدن الحجاز بالخير الوفير فتدفقت عليها الأموال والثروات من سائر البلاد وغرق المجتمع الحجازي في بحر من الذهب السائل. وكان كثير من قادة الجيوش ومن تولوا مناصب الإمارة في البلاد المفتوحة من أبناء قریش وكان هؤلاء يعودون من حين إلى آخر محملين بثروات هذه الأقاليم إلى مواطنهم الأصلية في إقليم الحجاز. ويروى الطبري في سنة سبعين

أن مصعب بن الزبير شخص إلى مكة فقدمها بأموال عظيمة نقسمها في قومه وغيرهم، وقدم بدواب كثيرة وظهر وأثقال، فأرسل إلى عبد الله بن صفوان، وجبير بن شيبه، وعبد الله بن مطيع مالا كثيرا، ونحر بدنا كثيرة.

لقد جمع المجاهدون والصحابة هذه الثروات الكبيرة من الأنصبة الجزيلة التي حصلوا عليها من الغنائم في وقت الحرب والفتوحات، ومن مرتبات العطاء في وقت السلم ففي حروب عبد الله بن أبي السرح بشمال

أفريقيا في عهد الخليفة عثمان كان نصيب كل فارس من الغنائم ثلاثة آلاف
مثقال من الذهب، ومن أبي فبول العطاء الذي أجراه أبو بكر وعمر مثل
الحاكم بن حزام كانوا من الندرة بمكان.

وكانت المرأة في ذلك العصر قد أخذت تتمتع بقسط من الحرية والانطلاق فكانت لا ترى بأساً من البروز إلى الرجال ومحادثتهم، وكان لسيوع التسرى وكثرة الإماء. واختلاط العرب بالأعاجم أثره في الحياة الاجتماعية، فصار الأشراف وأبناء الصحابة لا يرون بأساً في حضور مجالس الغناء و اللهو، وفي سماع الشعر الغزلي الماجن، وصارت شريفات النساء يتبارين في التزين والتبرج ويتنافسن في إبراز محاسنهن، ويروى أن السيدة سكينة بنت الحسين كانت لها تسريحة شعر عرفت بها وكانت النساء يقلدنّها فيها، بل كان من الرجال من يحاكيها في تصفيف جمّة شعرها، وكان يسر كثير من النساء أن يشيب عمر وأمثاله بهن ليعرف جمالهن، وربما استدعينه

ليحكم أيهن أجمل، وفارقت المرأة العربية حياءها القديم فصارت لا ترى
ضيرا في أن تتعرض للرجال وتتصدى للجان.

وفي الغزل الجاهلي قلما عبر الشاعر عن عاطفته تعبيرا مباشرا إذ كان
غزله في جملة وصفه لمحاسن المرأة التي يتغزل بها، أما شعراء الحجاز فإنهم لم
يقتصروا على الناحية المادية من المرأة بل تحدثوا أيضا عن طفتهم حديثا
مباشرا ويظهر من شعرهم أنهم عرفوا الحب وتذوقوه، وأذكروا مواضع الفتنة
في المرأة إدراك المنفعل لا إدراك المقلد المحاكى كما فعل كثير من الشعراء
الجاهليين في مقدمات قصائدهم.

وفرق آخريين غزل الجاهلية وغزل الحجاز في العصر الأموي يتمثل
في خلو الغزل الحجازي الإلهي من المجاهرة بالفحش والصراحة في وصف
العلاقة بين الرجل والمرأة فليس في الغزل الحجاز ما يشبه قول امرئ القيس
في معلقته :

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضع * فألهيتها عن ذى ثمام معول

٢. النوع الثاني : الغزل العذرى العفيف

وجد هذا النوع من الغزل في العصر الأموي بيئته الصالحة في وادي الحجاز ونجد حيث لا تزال حيات العرب الاجتماعية تقارب من بعض الوجوه حياتهم في الجاهلية فقد كانت تقاليد القبيلة العربية لا تزال تفرض سلطانها على أفرادها، وكان الاعتماد على الرعى وانتجاع مواطن الغيث والكلاء هو أسلوب العيش الأساسي فيه.

وكانت تقاليد البادية تحرم على الشاعر الزواج بمن شب بها أو عرف بحبها. وظلت هذه الوادى في عزلة نسبة عن المؤثرات الحضارية التي كانت تفد إلى مدن الحجاز وقراها فلم يتأثر بها، ولم يستدب لها.

لقد عاش سكان البادية عيشة فقيرة فيها شظف العيش وقسوة الحياة، وجذب البيئة. فقد كان مجتمعهم رعويا تميز بالحرمان وخشونة الملبس والمأكل، وكان عليهم في الإسلام أن يقتطعوا من أموالهم حقا معلوما للزكاة، كذلك لم يهتم خلفاء بني أمية بامداد هذه البوادي بالأموال والعطايا والجواري والرقيق كما فعلوا مع مدن الحجاز لأغرض سياسية

فمدن الحجاز كانت مهد الإسلام ومصدر قوته، ومنها انبعثت الجيوش الفاتحة التي أزالَت الدول وأخضعت البلاد.

وشعر ابن زيدون يكون من الغزل العفيف لأن ليس من زمن
الجاهلي وليس الحب لكثير من النساء ولكنه يحب إلى ولادة فقد، ويعبر
الشعر النونية باللفظ المجمل وكثير من الصورة البيانية.

مثل: يَا رَوْضَةً طَالَمَا أَجَنْتَ لَوَاحِظُنَا وَرَدًّا، جَلَاهُ الصَّبَا غَضًّا وَنَسْرِينَا

المبحث الثالث : شعر غزل أضحى تنائي

أ. المختر من نونيته

كما بين السابق هذا الشعر من غزل عذري أو غزل غير الصريح،
كانه يحب ولادة فقد حتى مات ابن زيدون.

لم يصف الدهر لولادة وابن زيدون فوقعت الوحشة بينهما حيناً ثم
نَعَصَ عيش ابن زيدون بالسجن. ولما استطاع ابن زيدون أن يفر من سجنه
طاف حيناً بأرجاء قرطبة علّه يلتقي بولادة على حال من الأحوال. ولكن لم
يتفق له ذلك فكتب إليها بالقصيدة التالية أجمل قصائده وأشهرها.

شعر غزل اُضحیٰ تنائی لابن زیدون

١. أَضْحَى التَّنَائِي بَدِيلاً مِنْ تَدَانَيْنَا وَنَابَ عَنْ طِيب

لَقِيََانَا تَجَافِينَا^{١٢}

٢. ألا! وقد حان صُبحُ اليَينِ، صَبَّحنا حَيْنٌ، فقمَ بنا للحينِ ناعينَا

٣. مَنْ مَبْلُغُ الْمُبْسِينَا، بَانْتِرَاحِهِمْ حُزْنًا، مَعَ الدَّهْرِ لَا يَبْلَى وَيُؤَلِّينَا

٤. إن الزمان الذي ما زال يُضحكنا أنسًا بقرهم قد

عادی کی کیا

٥. غِيْظَ الْعِدَى مِنْ تَسَاقِينَا الْهَوَى فِدَعُوا بِأَنْ نَعُصَّ فَقَالَ

الدهر آمينا

٦. فَحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُودًا بِأَنْفُسِنَا وَأَنْبَتَ مَا كَانَ مَوْصُولًا بِأَيْدِينَا

۷. وقد نكون وما یحشی تفرقنا فالیوم نحن وما یرجی تلاقینا

٨. يَا لَيْتَ شِعْرِي، وَلَمْ تُعْتَبْ أَعَادِيكُمْ، هَلْ نَالَ حَظًّا مِنَ الْعُتْبَىٰ أَعْدِينَا

٩. لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم رأياً ولم نتقلد

غیرہ دینا

^{١٢} ديوان ابن زيدون شرح د. حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت ١٤١٠/١٩٩٠م ص ٣٦٩.

١٠. مَا حَقَّنَا أَنْ تُقَرَّوْا عَيْنَ ذِي حَسَدٍ بِنَا، وَلَا أَنْ تَسُرُّوَا

كَاشِحًا فِينَا

١١. كُنَّا نُرَى الْيَأْسَ تُسَلِّينَا عَوَارِضُهُ، وَقَدْ يَتَسَّنَا فَمَا لِلْيَأْسِ

يُغْرِينَا

١٢. بِنْتُمْ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ

وَلَا جَفَتْ مَاقِينَا

١٣. نَكَادُ حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمَائِرُنَا يَقْضِي عَلَيْنَا

الْأَسَى لَوْلَا تَأْسِينَا

١٤. حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَغَدَتْ سُودًا

وَكَانَتْ بَكُمْ بِيضًا لِيَالِينَا

١٥. إِذْ جَانِبَ الْعَيْشِ طَلَّقُ مَنْ تَأَلَّفْنَا وَمُورِدُ اللّٰهُوَ صَافٍ

مِنْ تَصَافِينَا

١٦. وَإِذْ هَصَرْنَا فُنُونَ الْوَصْلِ دَانِيَةً قَطَفُهَا، فَجَنَيْنَا مِنْهُ مَا شِينَا

١٧. لَيْسَقَ عَهْدِكُمْ عَهْدَ السَّرُورِ فَمَا كُنْتُمْ

لَأَرْوَاحِنَا إِلَّا رِيَاحِينَا

١٨. لا تحسبوا نأْيكم عنا يُغَيِّرنا أن طالما غيَّر

النأي المحيِّنا

١٩. والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً منكم ولا

انصرفت عنكم أمانينا

٢٠. يا ساري البرقِ غادِ القصرَ فاسق به من كان صيرفَ الهوى والود

يَسْقِينَا

٢٢. ويا نسيمَ الصَّبَا بلغ تحيتنا من لو على البعد حيًّا

كان يُحيينا

٢٣. فهل أرى الدهرَ يقضيْنا مُسَاعِفَةً مِنْهُ، وإن لم يكنْ غِبًّا تَقَاضِينَا

٢٤. رَيْبُ مُلْكٍ كَأَن الله أنشأهُ مِسْكَاً وَقَدَّرَ إنشاءَ الورى طِينَا

٢٥. أو صاغَهُ ورقاً محضاً، وتوجَّه من ناصع التبرِ إبداعاً وتَحْسِينَا

٢٦. إذا تَأَوَّدَ آدَتُهُ، رَفَاهِيَّةً، ثُوْمُ الْعُقُودِ، وأدَمَّتُهُ الْبُرى لِينَا

٢٧. كَانَتْ لَهُ الشَّمْسُ ظِعْراً في أَكْلَتِهِ بَلْ ما تَجَلَّى لها إلا أَحَايِينَا

٤٠. أَمَا هَؤَالِكِ، فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ شَرْبًا وَإِنْ كَانَ يُرْوِينَا فَيُظْمِنَا

٤١. لَمْ نَجِفْ أَفْقَ جَمَالِ أَنْتِ كَوْكُبُهُ سَالِينَ عَنْهُ، وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا

٤٢. وَلَا اخْتِيَارًا تَجَبَّنَاهُ عَنْ كُتُبٍ، لَكِنْ عَدُّنَا، عَلٰى كَرِهٍ، عَوَادِينَا

٤٣. نَأْسِي عَلَيْكَ إِذَا حُتُّ، مُشْعَشَعَةً، فِينَا الشَّمُولُ، وَغَنَانَا مُغْنِينَا

٤٤. لا أكؤس الراح تبدي من شمائلنا سِيما ارتياح، ولا الأوتار تُلهينا

٤٥. دُومِي عَلَى الْعَهْدِ، مَا دُمْنَا، مُحَافِظَةً، فَالْحُرُّ مَنْ دَانَ إِنْصَافًا كَمَا

دینا

٤٦. فَمَا اسْتَعْضْنَا خَلِيلًا مِنْكَ يَحْبِسُنَا وَلَا اسْتَفْدْنَا حَبِيبًا عَنْكَ يَثِينُنَا

٤٧. وَلَوْ صَبَا نَحُونَا، مِنْ عَلُو مَطْلَعِهِ، بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكَ

يُصْبِحُ

٤٨. أُولى وفاءً، وإن لم تَيْذُلْ صِلَةً فَالطِّيفُ يُقْنَعُنَا، والذِّكْرُ

يَكْفِينَا

من البيئة المشرقية أقنضت أن يختلف الأدب في الاندلس من الأدب في المشرق في نواح عديدة.

ولا خلاف في أن الشعر في الأندلس كان أكثر رقة من الشعر في المشرق، وفي أن الوصف في الشعر الاندلسي كن أوسع مدى وأكثر صورا بلاغية مما نجد في الشعر المشرقي (فإن طبيعة القطرين كانتا مختلفين ، وكانت الطبيعة في الاندلس أشد بروزا منه في الأدب المشرقي).

وكان اختلاط الرجال بالنساء في الاندلس أكثر مما كان في المشرق وأهون ، فلا بدع إن اختلف الغزل الاندلسي من الغزل المشرقي. غير أن هذا الخلاف كان قاصرا على الأسلوب الذي رق كثيرا وعلى عدد من المعني والاعراض المستمدة من البيئة الاندلسية ومن المجتمع الأندلسي. أما في ما عدا ذلك فلم يكن الاختلاف بين الغزلين كبيرا.

ب. ترجمة ابن ويدون

أ. حياته

هو ابو الوليد أحمد بن عبد الله المخزومي المشهور بان زيدون، ولد
بقرطبة سنة ١٠٠٣ م (٣٩٤ هـ) في خلافة هشام الثاني، وهو هشام بن
الحكم الذي خضع لنفوذ العامرين وحكمهم. وقد عاصر عهد الفتنة فشهد
الصراع بين أمويين على الحكم وبين الأمويين والعامرين وبين العرب
والبربر. ولما قتل آخر خليفة أموي اجتمع وجهاء قرطبة وأقاموا حكومة
الجماعة الاستقرائية وعلى رأسها أبو الحزم بن جهور.

نشأ ابن زيدون في بيئة مثقفة وكان أبوه من وجهاء قرطبة وأغنيائها وفقهاءها، فأحضر له الأدباء والمربين. لكن والده مات عندما كان ابن زيدون في الحادية عشرة فاهتم به جدة لأمه. فثقف ثقافة حسنة ونظم الشعر باكرا. وكان ابن ويدون منجازا لأبي الحزم بن جهور وصديقا لابنه أبي الوليد. فلما تسلم ابن جهور الحكم استقدم الشاعر وأوكل إليه النظر في أهل الذمة وجعله سفيرا لدى بعض ملوك الطوائف، ولقبه بذي الوزارتين.

وقد أحب الساعر ولادة بنت المستكفي الخليفة الأموي الذي خلعه أهل قرطبة فانتقل إلى "الشجر" ومات هناك بطريقة غامضة. وكانت ولادة من

نساء قرطبة الجميلات وشاعرة مجيدة جعلت مجلسها ملتقى الشعراء وأهل الأدب. يقول ابن بسام صب كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" في ولادة : "كان مجلسها بقرطبة منتدًى لأحرار العصر وفناؤها ملعباً لجياد النظم، يعيشو أهل الأدب إلى ضوء غرقها وبتهالك أفراد الشعراء والكتاب إلى حلاوة عشرتها" وقد عشقها ابن زيدون وجرت له معها أخير مشهورة، فكانت ولادة تداعبه بهجائها أو تضرب له موعداً كقولها:

ترقب إذا جن الظلام زيارتي * فإني رأيت الليل أكنم للسر
وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا * وبالليل ما أدجى لم يسر

وقد حصلت جفوة سببها أن الشاعر سمع جارية ولادة تغني، ولما فرغت سألها لإعادة بغير أمر ولادة التي عاتيت جارياتها عتبي وضربت بها. وفي ذلك يقول ابن زيدون:

وما ضربت عتبي لذنوب أتت به * ولكنما ولادة تشتهي ضربي
فقامت تجرّ الذيل عائرة به * وتمسح طلّ الدمع بالغنم الرطب

ثم انتظر اليوم التالي فكتبت له:

لو كنت تنصف في المودة بيننا * لم تهو جارياتي ولم تتخير
وتركت غسناً مثمراً بجماله * وجنحت للغصن الذي لم يثمر

باحتيال قرطبة .فغتنم المعتمد استنجد عبد الملك بن أبي الوليد به ضدّ ابن
ذي النون ليستولي على قرطبة ويضمها إلى مملكته وينقل كرسي ملكه إليها.
وبقي ابن زيدون إلى جانب المعتمد حتى اضطربت الأحوال في
إشبيلية، فأرسل المعتمد ولده الحاجب وابن زيدون لتهديتها. وكان شاعرنا
كبيرا في السن مريضا، فاشتدت عليه وطاة الحمى وتوفي في إشبيلية ودفن
فيها سنة ١٠٧٠ م (٤٦٣ هـ) تاركا دوانا شعربا في الغزل والرثاء والوصف
والشكوى والعتاب والمديح والاعتذر.

١. شعره

لابن زيدون مدائح كثيرة في أبي الحزم جهور وأبي الوليد وفي المعتضد
وابنه المعتمد، كما مدح بعض أمراً الطوائف ، وله رثاء في أبي الحزم بن
جهور وفي المعتضد وبعض أبناء الخاصة. وهو يستهل مدئحه غالبا على
طريقة القدماء، وأما مرثيه فيبدأها بذكر فذاحة المصاب أو بحكمة تتناول
ذكر الدهر وغدره. ولا نجد في مدح ابن زيدون وراثته تجديدا فعليا، بل نراه
يتناول المعاني الشائعة عند القدماء كذكر الكرم والشجاعة والتقوى وسائر
المعاني التي لم يبلغ بها شاو يغالي في بعض أقواله فيصل حد النفور.

